عرض الكتب ونقدها

احداث في تاريخ الخليج العربي

المؤلف: د.خالد حمود السعدون
جامعة الشارقة – الامارات العربية المتحدة

عرض :أ.م.صفاء عبد الوهاب المبارك
مركز دراسات الخليج العربي

الاسكندرية- المكتب الجامعي ٢٠٠١م.

الكتاب الذي نحن بصدد عرضه ومراجعته يعد مرجعاً مهماً لرصد احداث هامة وقعت خلال الربع الاول من القرن العشرين ، وقد اتخذ المؤلف منطقة الخليج العربي مجالاً لدراسة هذه الاحداث في ثمانية فصول وفي فترة زمنية تبدأ من عام ١٩٠٨ وتنتهي في عام ١٩١٤ .

يقدم المؤلف كتابه بتوطئة (ص٣) يشير فيها الى الاسباب التي شجعته على نشره منها احساسه الطبيعي لحاجته للتعامل مع قارئه ولان تلك الاحداث تلقي الضوء على جوانب من تاريخ العرب الحديث رغم ان غياب وحدة الموضوع فيها قد لايسوغ لنشرها كمجموعة في كتاب واحد .

تناول المؤلف في الفصل الاول حركة الادريسي في عسير ١٩١٩ ــ١٩٢٢. وفي بداية الفصل اشارات منهجية وضوابط يبدو ان المؤلف اراد فيها تسهيل مهمة القارىء في متابعة ماتناوله وتعمق فيه. وقد اوضح المؤلف من خلال استخدامه مجموعة جيدة من الوثائق البريطانية وكتب المذكرات طبيعة حركة الادريسي وعلاقتها بالسلطات الحكومية العثمانية

وقارن مادة الوثائق البريطانية بروايات المصادر الاخرى . كما اشارة الى اختلاف المراجع حول اهداف حركة الادريسي ، فتقارير الاستخبارات البريطانية اعطت حركة الادريسي صفة دينية وسياسية لان هدفها تنقية الدين الاسلامي مما علق به من شوائب واقامة خلافة عربية في مكة المكرمة ، بينما اعتبرت مراجع اخرى الادريسي مرشدا يدعو لحل مشاكل القبائل طبقاً لاحكام الشريعة الاسلامية فضلا عن انه لم يكن ذا اهداف اصلاحية كبرى تتناقض بصورة جذرية مع سياسة الدولة العثمانية . ويلخص المؤلف نتائج دراسته بعد حركة الادريسي حركة دينية في جوهرها وذات اتجاه اصلاحي نسبي مع عدم اغفال جانبها السياسي (ص٤٤) ويتحفظ المؤلف حول ثبوت فكرة سعي الادريسي لاقامة خلافة عربية في مكة المكرمة . ومن الجدير بالذكر ان حركة الادريسي هي حركة داخلية لها اثرها في الحركة السلفية ولم تمتلك في ذاتها عوامل التجديد والتطور وان مسيرة العمل التي تبناها الادريسي لم تكن ذات ثقل كبير على الصعيد الشعبي ولم تاخذ بعدا فكريا وسياسيا .

اما الفصل الثاني فقد تناول اهمية الشعر النبطي بوصفه احد مصادر التاريخ الحديث ، ويرى المؤلف ان تسمية هذا النوع من الشعر ظهرت خلال الفترة الواقعة بين اواخر القرن الثامن واوائل القرن العاشر الهجريين ، كما ان شعراء النبط هم اقدر من غيرهم على تقديم صورة الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي كانوا يعيشونه . ويشير المؤلف (ص٦٤) الى انه لاصعوبة في فهم اللهجات المحلية التي كتب بها الشعر النبطي على كثير من الباحثين . ويبرر ذلك بقوله ان اغلب المفردات المستخدمة في صياغة الشعر النبطي اكثر فصاحة مما نستخدمه من لغة في حديثنا اليومي . وينهي المؤلف الفصل بالتاكيد على ان اطلاع الباحثين على دواوين شعراء النبط المعاصرين سيمكنهم من التعرف على وجهة نظر صحيحة تجعل نتائج بحوثهم اكثر توازنا ودقة وتجنبها ماخذ الاعتماد المطلق على ما يرد في المصادر الاجنبية وحدها .

ويناقش الفصل الثالث مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق بين سنتي١٩١٨ــ ١٩٢٠. ويشير المؤلف الى مسالة هامة وهي ان المنظمة الاقليمية اليهودية بقيادة (اسرائيل زانغويل) لها دور كبير في الدعوة لفكرة الاستيطان اليهودي في العراق . وكان اول من فكر في انشاء مستعمرة يهودية في العراق هو (بول هويت) الاستاذ في جامعة جون هو بكنز الامريكية عام ١٨٩٢ . ويؤكد المؤلف على ان السلطان عبد الحميد الثاني كان قد عرض على (ثيودور هرتزل) زعيم الحركة الصهيونية عام ١٩٠٢ قبوله بهجرة اليهود الى العراق واستيطانهم فيه وربما كان دافع السلطان عبد الحميد الذي عرف بصلابته امام الاطماع الصهيونية هو تشتيت انتباه الحركة الصهيونية المركز على فلسطين او التخلص من الضغط الصهيوني المتزايد عليه .

وقد ساهمت المنظمات اليهودية الانكليزية والفرنسية في هذا المشروع إذ يشير المؤلف الى وصول اليهودي الفرنسي (نييغو) الى بغداد لدراسة موضوع التوطين والذي اقترح توطين (٥٠) الف يهودي روسي وبولوني في شمال بغداد وقد ايد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك وهو يهودي دخل في الاسلام . ويشير المؤلف (ص٧٣) استناداً الى الوثائق البريطانية الى ان احمد رضا بيك احد زعماء جمعية الاتحاد والترقي دعى الى ايجاد وطن ذي حكم ذاتي لليهود في العراق تحت ظل الدولة العثمانية . وصار لهذه الفكرة صدى واسع لدى الولايات المتحدة الامريكية .

وقد دعم السفير الامريكي لدى الدولة العثمانية (اوسكار ستراوس) وهو يهودي فكرة توطين اليهود في العراق بالتعاون مع المصرفي الصهيوني (جاكوب شيف) . ويرى المؤلف ان هدف الحركة الصهيونية انشاء امبراطورية واسعة في المشرق العربي . ومن الجدير بالذكر هنا ان الايديولوجية التي طورها الصهاينة لتبرير مشرعهم الاستيطاني وجعله شرعياً اسست على غرار نموذج الايديولوجية والحجج ذاتها لحركة الدول الغربية الاستعمارية .

اما في الفصل الرابع فقد سلط المؤلف الضوء على بعض جوانب مشكلة بساتين ال الصباح في منطقة البصرة حتى سنة ١٩٢١ التي لم تلق عناية من قبل الباحثين المعاصرين بشكلها الاقتصادي والسياسي . إن لهذه المشكلة كما يرى المؤلف (ص٩٥) اهمية اقتصادية بالنسبة للكويت ولها جانب سياسي لاندراج احداثها في مسار العلاقات العثمانية – البريطانية – الكويتية ثم العلاقات العراقية –الكويتية –البريطانية في المرحلة اللاحقة .

ويعالج المؤلف في الفصل الخامس الصراع بين الرياض وحائل ١٩٠٢-١٩٢١ فكتب عن نشأة امارة ال رشيد في حائل اذ كانت خلال القرن الثاني عشر الهجري حاضرة لامارة ال علي بن عبده من قبيلة شمر التي انضوت تحت لواء الدولة السعودية الاولى (١٧٨٦-١٧٨٧) وظلت حتى سقوطها على ايدي قوات محمد علي سنة١٨١٨م ثم انضمت حائل للدولة السعودية الثانية . ويذكر المؤلف (ص١٢٢) ، ان ولاء اقليم شمر ظل على ولاءه للرياض بزعامة محمد بن عبد الله الرشيد. كما شهدت امارة حائل تنافساً على السلطة . وقد استغل ابن سعود الصراع على السلطة في الامارة من اجل تحقيق السيطرة على نجد . وفي الصفحات التالية من الفصل يعرض المؤلف باسهاب تطورات الصراع بين حائل والرياض حتى قيام الحرب العالمية الاولى . وكان نشاط ابن رشيد يقابل بارتياح من قبل السلطات العثمانية ولم تكن لابن رشيد السيطرة الكاملة

على نجد . ويرى المؤلف ان الصراعات الداخلية حتى عام ١٩٢٠ لم تؤثر على مركز ابن رشيد واستمر البريطانيون يعتبرونه قوة مؤثرة في حسابات ميزان القوى بينهم وبين العثمانين في المنطقة .

ويستعرض المؤلف في الفصل السادس مشكلة قبيلة العجمان بين سنتي ١٩١٠ -١٩١٩ . ويذكر في بداية الفصل ان العجمان قبيلة عربية قحطانية تقع ديرتها في شرق شبه الجزيرة العربية ، وقد ناصبت القبيلة العداء للعثمانيين منذعام ١٨٧١ م وحتى عام ١٩١٣ . وكانت علاقة هذه القبيلة مع ابن سعود حاكم الرياض متوترة على الرغم من عدم خضوعها لحكمه المباشر . وقد تم ترحيل العجمان الى الكويت وجبل سنام عام ١٩١٦ . وبسبب ضغط السلطات البريطانية على ابن سعود تم ابعاد العجمان من الكويت بموجب اتفاق عقد عام ١٩١٨ وذلك لان عمليات العجمان الحربية باتجاه الاحساء اصبحت تمثل خطراً على ابن سعود .

وفي الفصل السابع رصد المؤلف العلاقات بين الرياض ومكة المكرمة اثناء الحرب العالمية الاولى ، ويذكر المؤلف ان العلاقات بين ال سعود وجيرانهم اشراف الحجاز كانت تتسم بالمنافسة والصراع ايام الدولة السعودية الاولى وتحسنت العلاقات في الفترات اللاحقة . وتعد حملة الشريف حسين بن علي شريف مكة على القصيم في عام ١٩١٠ سبباً في اندلاع الصراع بينهما . ويعتبر المؤلف ثورة الشريف عام ١٩١٦ على العثمانيين بداية حقبة جديدة في تاريخ المنطقة ثم دخل عامل جديد في هذه العلاقة هو تدخل بريطانيا في الاحداث . ويختتم الفصل بالاشارة الى مسألة حيوية وهي قرار بريطانيا عدم التدخل في مشاكل الحدود بين نجد والحجاز وبذلك اثارت بريطانيا الضوء الاخضر امام الزعيمين للجوء الى القوة كي تكون الفيصل في تقرير مصير قرية الخرمة بل والحجاز كله.

أما الفصل الثامن وهو الاخير فقد ناقش المؤلف فيه النفوذ البريطاني في العراق بين عامي ١٩٠٨-١٩١٤. فكتب عن التمثيل القنصلي البريطاني والامتيازات والمؤسسات التعليمية البريطانية في العراق واختتم المؤلف الفصل في متابعة الاهتمام البريطاني بالوضع البريطاني المستقبلي في العراق بقوله ، ان السلطات القنصلي البريطانية اهتمت باستشراف افاق المستقبل في العراق وكيفية تعزيز نفوذها مستقبلاً . ومن ابرز العوامل الاكثر اهمية في مستقبل العراق هي منظومة الري المخطط لها وانتاج النفط وسكة حديد بغداد. وقد خطط البريطانيون لذلك اثناء الحرب العالمية الاولى وماتلاها من الاحداث.

اعتمد المؤلف المنهج التاريخي التحليلي وهو منهج ديناميكي يلاحظ العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والانثروبولوجية كافة .والمنهج التاريخي مهم من جهة وضع الوثائق والمعلومات في سياقها الزمني تمهيداً لتحليلها ، انه منهج متاصل في مجمل الدراسات العلمية وفي مختلف ميادين المعرفة .

أنطلق المؤلف مستنداً على هذا المنهج كونه مؤرخا باحثا الى رصد تلك الاحداث فكشف عن منعطفاتها ومساراتها مستنداً الى مجموعة من الوثائق والمراجع . وقد غلب على الكتاب الصفة العلمية (الاكاديمية) لغة واسلوباً والامانة في النقل والتوثيق ، بيد اننا نجد بعض الملاحظات التي لاتقل من اهمية هذا الكتاب بقدر تزيده اصالة وغنى:

الاولى- إن اعتماد المؤلف على الوثائق البريطانية بدرجة كبيرة له مايبرره ، ولكننا نعتقد انه بالرغم من الاهمية الكبيرة للوثائق البريطانية في الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة فأنه يجب ان لانبالغ في اهميتها اذ قد تكون هناك معلومات او تأثيرات غير مدونه فيها عن تلك الاحداث ، ولما فيها من مزاعم مشبوهة في الموضوعية العلمية . كما ان بعض الافتراضات والمنهجية التي تتبناها تلك الوثائق والمصادر البريطانية الاخرى قد اضافت كثيراً من التحيز والتشويه لما فيها من اتجاهات تمتد جذورها عميقاً . فيما يدعيه البريطانيون في التفوق العنصري والاخلاقي كما ان المعتقدات العنصرية التي سادت الثقافة البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين قد قررت الصور البريطانية عن الاحداث العربية باختلاق مجموعة من الاخطاء والتشويهات والصور القائمة على قوالب ذهبية ثابته لغرض تعزيز المطامح والمصالح السياسية . أما كتب المذكرات التي راجعها المؤلف فهي الاخرى يتطلب اخضاعها للفحص العلمي على مستوى النقد والتحليل والاستناس بمنطلق السياق التاريخي الذي وردت فيه محاولة استنطاق هذا السياق باحداثه .

الثانية- كان على المؤلف ان يقدم عرضاً للدروس المستفادة من تلك الاحداث والعناصر التي انطوت عليها ويناقش ادوار الفاعلين السياسيين الرئيسين الذين ساهموا في تشكيل واقع المنطقة في تلك المرحلة . ولما كان المؤلف احد واجهات النخب المفكرة فأنه يجب ان يكون معنيا بمستقبل العلاقات العربية التركية على اساس تبني قواعد التوافق السياسي الضروري وعقلنة المواقف وارساء مضامين الشراكة المصرفية .

الثالثة- يبدو أن المؤلف ربما قد بحوثاً سبق اعدادها في مناسبات مختلفة مع تطويرها لتتناسب مع الظرف الجديد . ومن هنا فأن استخدام الوثائق العثمانية والايطالية ومراجع اخرى قد يكتسب اهمية كبيرة في استكمال الموضوعات وضبط الاتجاهات . ومع ذلك فان المؤلف قدم تحليلاً موضوعياً للاحداث والاستعانة ببعض دروسها في مواجهة تحديات الحاضر.

الرابعة- أن اية دراسة تظل محدودة من جهة بتوافر المصادر ومقيدة من جهة اخرى بعامل الوقت . وهذا يستدعي وقوعها في اشكالات منهجية لامفر منها ، كما ان الالمام بالتفاصيل يكون امراً عسيراً ان لم يكن مستحيلا.